مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X
المجلد 05/ العـدد 02: (2018)، ص 08- 22

التلازم بين علمي القراءات والتّفسير وأثره في تعدّد المعاني في القرآن الكريم، نماذج من تفسير "البحر المحيط" لأبي حيّان الأندلسي.

الدّكتور: محمد بشير باي
جامعة الجزائر 1 - الجزائر

ملخص عربي:

يتطلب التلازم بين علمي القراءات و التّفسير التطرق إلى موضوع ذي صلة بهذين العلمين من خلال ما ورد من ألفاظ وزيادات تفسر معنى القراءة من جهة، ومن خلال التغيير الذي يقع على مستوى الحركة؛ لذلك سأسعى إلى بيان أثر القراءات وتفسيرها في اختيار المعنى. فما حقيقة الصلة والتلازم بين القراءات والتّفسير؟ وإلى أيّ مدى يتجلى تأثيرها-الصلة- في اختيار المعنى؟

ملخص إنجليزي:

In order to have a reciprocal relationship between how to recite and explain the Holy Quran, we have to deal with a science which has a relation with each of them through the words and the meaning of it and through the change which appear on the level of expression, That is why I want to show the impact of reciting on the right meaning.So,what is the real relation between reciting and explanation and to what extent it may effect selecting the meaning.

المقدمة.

لايزال المعنى الوسيلة الأمكن لتوخي غاية القرآن الكريم وعلومه اللغويّة؛ مهما تعاقبت عليه أفهام العلماء والباحثين، بحيث احتجّ به النحوي ونهل منه البلاغي، ونظر فيه المفسّر...إلخ. فوجد فيه كلهم مبتغاه وقصده وهو مع ذلك متجدّد المعاني. وقد أخذت القراءات القرآنية نصيبا وافرا من اهتمام العلماء ضبطا ورواية وتوجيها، وعُني بها عناية فائقة منذ العصور الأولى في الإسلام، ولعل الخلاف بين المفسرين في تفسير الآيات القرآنية يرجع سببه إلى القراءات؛ والتي احتوت بدورها جوانب أخرى أعطت للنص القرآني تميزه، وكان من بين هذه الجوانب تعدد المعاني بتعدد القراءات القرآنية.

التلازم بين علمي القراءات والتّفسير وأثره في تعدّد المعاني في القرآن الكريم. نماذج من تفسير "البحر المحيط" لأبي حيّان الأندلسي.

ولما كان هذا التلازم بين علمي القراءات و التّفسير؛ كان لابد من التطرق إلى موضوع ذي صلة بهذين العلمين من خلال ما ورد من ألفاظ وزيادات تفسر معنى القراءة من جهة، ومن خلال التغيير الذي يقع على مستوى الحركة؛ لأنّ جلّ القرّاء كانوا نحاة وقد ألّف كل منهم كتابا في إعراب القرآن يوجّه القراءة التي يقرأ بها من حيث الإعراب، ويجد لها مخرجا ترتضيه أصول اللغة العربية، لذلك سأسعى إلى بيان أثر القراءات وتفسيرها في اختيار المعنى. فما حقيقة الصلة والتلازم بين القراءات والتّفسير؟ وإلى أيّ مدى يتجلى تأثيرها-الصلة- في اختيار المعنى؟ واتّبعت المنهج الاستقرائي بتتبع القراءة ثمّ تفسيرها الوارد بتحليل أقوال المفسرين في بيان معاني الآيات المتضمنة للقراءة القرآنيّة.

وجاءت خطّتي على النحو التالي:

المبحث الأول: بين التفسير والقراءات القرآنية.

المطلب الأول: في التفسير.

المطلب الثاني: أهميّة التفسير في القراءات القرآنية.

المبحث الثاني: علاقة المعنى بالقراءات القرآنية.

المطلب الأول: المعنى و وجوه القراءات.

المطلب الثاني: مظاهر التفسير في توجيه المعنى.

المبحث الثالث: نماذج وتطبيقات تفسيريّة عند أبي حيّان من خلال "البحر المحيط".

المطلب الأول: الحركة الإعرابية ودلالة اللفظ.

المطلب الثاني: دلالة عود الضمير.

المبحث الأول: بين التفسير والقراءات القرآنية

المطلب الأول: في التفسير:

يُنظر إلى لفظ التفسير أنّه خصيصة من خصائص القاموس القرآني حيث ورد ذكره مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْناكَ بالحَقِّ، وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[1]. ولأجل هذا التلازم المطلق بين القرآن والتفسير؛ أضحى مصطلح التفسير لا يطلب إلا في دائرة ما تعارف عليه الدارسون لهذا النص الأقدس باسم (علوم القرآن). وهاته العلوم

[1]- الفرقان/ 33.

على تعدّد فنونها إلّا أنّ التفسير ضمنها يبقى الأكثر اعتبارا، والأدوم ملازمة للنص المعجز.. والملاحظة أن علماء القرآن قد تباينوا في حد التفسير.

فالإمام السيوطي (ت911ه) ذاته قد اجتهد في تعريفه، فلم يزد إلا أن ساق أربعة عشر تعريفا[2] يقل الشبه فيها بين اثنين. دلالة على أن المصطلح لم يعد محتملا فهما بعينه وخاصة منذ اتسعت آفاق القراءة أمام نخب ثقافية مكنتها من التداعي على النص بما تحوز من المعارف، والأفكار والقناعات. فكان أن ظهرت الآراء في التفسير بما فيها من أثر الفلسفة، والبلاغة، والتصوّف فضلا عن الآثار العرفية والحضارية التي ولدت هي الأخرى قناعات مذهبية استجاب لها الفهم التفسيري آنذاك. وهذا ليس بمنكر في حق علم شهد له بالمزية وشرف القيمة[3]. وفي هذا الصّدد يعرّف الإمام السّيوطي رحمة الله عليه؛ التفسير بكونه: "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد– ص- وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"[4].

ولحصر الفهم الاصطلاحي للتفسير ننظر فيما تفيد به الدلالة اللغوية التي هي أساس كل فهم رغم خلاف اللغويين حول الأصل الاشتقاقي لكلمة (التفسير)، وهذا المعنى هو الذي يعتمده الإمام الزركشي(ت794ه)، حيث يقول:" وأما التفسير في اللغة فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأصله في اللغة من التفسرة وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء. فكما أنّ الطبيب ينظر فيه يكشف، عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف شأن الآية وقصصها ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه. فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويقال: فسرت الشيء أفسره تفسيرا، وفسرته أفسره فسرا. والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال، وبمصدر الثاني منهما سمى أبو الفتح بن جني كتبه الشارحة (الفسر)"[5]. وتأسيسا على هذا البيان

---

[2]- ينظر: السيوطي عبد الرحمن بن محمد جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، تح: فوّاز أحمد، بيروت، دار الكتاب العربي، 2005، ج 167/4.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ج 173/2.

[4]- المصدر نفسه، ج169/4.

[5]- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، بيروت- لبنان-، دار الفكر، 1980، ج147/2.

اللغوي نلاحظ أن التفسير في الاصطلاح القديم نظر إليه من حيث إنه علم جامع لسائر علوم القرآن والعربية.

وقد اهتمّ المفسرون بالنّص القرآني وما يحيط به أيّما اهتمام، فنال رعاية خاصة عندهم وكتبوا في آيه كلاماً كثيراً، وأعطوا السّياق ومقتضى الحال حقّه في تفسير القرآن الكريم، زيادة على وعيهم الكبير بقوانين وقواعد اللغة العربية، ومن الشروط التي أكدّ عليها المفسرون ضرورة الوعي بالسياق المحيط بالمخاطبين ليتحقّق الوعي بالخطاب ومضمونه. وعليه؛ فإنّ جهود المفسرين تركزّت كلّها في السياق اللغوي، وما سيتلزمه النّص القرآني كاستحضار تفسير آية لتفسير آية أخرى، ونجد المفسرين قد أولوا أهمية للغرض أو المقصد أو الهدف، وأثر ذلك داخل النّص؛ أي تفاعل عناصره المكوّنة له والسياق، ومن ثمّ استنباط الحكم الشرعي.

المطلب الثاني: أهميّة التفسير في القراءات القرآنية.

تُعدّ القراءات رافدا مهمّا في إيضاح معاني القرآن الكريم سواء أكانت متواترة أم آحادا، يقول الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة(ت1404ه): " القرآن الكريم حجة في العربية بقراءاته المتواترة و غير المتواترة، كما هو حجة في الشريعة، فالقراءة الشاذة التي فقدت شرط التواتر لا تقل شأنا عن أوثق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأساليبها، وقد أجمع العلماء على أنّ اللغة يكتفى فيه برواية الآحاد"[6].

فتكمن أهمية التفسير في القراءات القرآنية في إيضاح معاني القرآن الكريم، كالاستشهاد بها في استنباط الأحكام الشرعية، والاستشهاد بها في القضايا اللغوية.

1- المستوى الصوتي: فمثلا استدل بقراءة ابن مسعود ﴿ **وَثُومِهَا** ﴾[7] على جواز الإبدال بين الفاء والثاء.

2- المستوى الصرفي: استدل ابن عطية(ت541ه) بقراءة (مَعَائِشْ) في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَائِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾[8] بالهمز على أنه

---

[6]- القراءات و أثرها في التفسير و الأحكام، محمد بن عمر بازمول، مخطوط دكتوراه، جامعة أم القرى، 1413/1412 ص 52، نقلا عن دراسات لأسلوب القرآن لعبد الخالق عضيمة.

[7]- البقرة61.

[8]- الأعراف 10.

يجوز همز حرف العلة في الجمع حتى وإن كانت مفردة أصلية وليست زائدة كما في (معيشة ومعائش)، وكما في مصيبة ومصايب وغيرها، وذلك على تشبيه الأصلي بالزائد.

3- المستوى التركيبي: أُستدل في ترجيح أحد الأوجه الإعرابية في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْضُلُوهُنّ**﴾[9]. وقرأ ابن مسعود(ت32ه): (وَ لَا أَنْ تَعْضُلُوهُنّ). فهذه القراءة تقوي احتمال النصب على حدّ تعبير ابن عطية.

4- المستوى الدلالي: يفيد التفسير كثيرا في تأييد و تأكيد القراءة المتواترة سواء من ناحية المعنى، أو من ناحية اللفظ، فمثال الأول قراءة أبي بن كعب (وَمَا تَسْأَل)، و ابن مسعود ﴿ **وَلنْ تُسْأَلَ** ﴾[10]. وهاتان القراءتان تؤيّدان معنى القطع والاستئناف في غيرها[11].

المبحث الثاني: علاقة المعنى بالقراءات القرآنية.

المطلب الأول: المعنى و وجوه القراءات.

من المعلوم أنّ الهدف الرئيس من تعدد القراءات واختلافها هو التيسير ورفع الحرج عن الأمة في قراءة كتاب ربها عز وجل، وكان من بين هذه الجوانب تعدد المعاني بتعدد القراءات، إذ كل قراءة زادت معنى جديدا لم تبينه أو توضحه القراءة الأخرى، وبهذا اتسعت المعاني بتعدد القراءات، إذ أنّ تعدد القراءات يقوم مقام تعدد الآيات القرآنية، مما ينتج عنه كذلك رفع إشكال متوهم في معاني بعض الآيات.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّه ليس كل اختلاف بين القراءات له الأثر في تعدد المعاني، بل هناك اختلاف لا تعلق له بالتفسير بحال في حالتين:

إحداهما: لا تعلق لها بالتفسير بحال.

الأخرى: لها تعلق بالتفسير من جهات متفاوتة.

أما الأولى؛ فهي اختلاف في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة والإخفاء، فهذه الاختلافات لا

---

[9]- النساء 19.

[10]- البقرة119.

[11]- ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -، ط 1، 1422ه-2001م، ص: 336/335.

تأثير لها في اختلاف معاني الآي، وإن كان لها أثر من جهات أخرى غير التفسير مثل التخفيف على الأمة في النطق وبيان سعة اللغة[12].

ومثال ذلك لفظة ﴿ **الصراط** ﴾[13]، فقد قرأها ابن كثير(ت774ه) ويعقوب بالسين (السراط)، وقرأها حمزة بصاد مشمّة الزاي (الزراط)، وقرأها الباقون بالصاد (الصراط)[14].

أما الأخرى؛ فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات، وهو على نوعين:

1- اختلاف اللفظ والمعنى جميعا مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

2- اختلاف اللفظ والمعنى، مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء واحد لاستحالة اجتماعهما فيه، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.

فهذه الحال بنوعيها هي التي لها مزيد التعلق بالتفسير، لأنّ ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد عن نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأنّ اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة[15].

أما اختلاف اللفظ والمعنى جميعا مع جواز أن يجتمعا فهو اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل (مَالِكِ، و مَلِكِ) في قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[16]، لأنّ المراد في القراءتين هو الله تعالى، لأنّه مالك يوم الدين و ملكه، و كذلك (يَكْذِبُونَ، و يُكَذّبُونَ) في قوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[17]؛ لأنّ المراد بهما هم المنافقون، لأنّهم يكذّبون بالنبيّ صلّى الله عليه

---

[12]- ينظر: القراءات وأثرها في التفسير و الأحكام، محمد بن عمر بازمول، ص 314.

[13]- الفاتحة:6.

[14]- ينظر: القراءة الشاذة دراسة صوتية ودلالية، حمدي سلطان حسن أحمد العدوي، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط 1، 1427 ه 2006 م، ج 1، ص 60-63.

[15]- ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، د ط، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1984، ج1/ 51.

[16]- الفاتحة: 4.

[17]- البقرة: 10.

وسلّم، ويَكْذبون في أخبارهم، ومثل (نُنْشِرُهَا و نُنْشِزُهَا) في قوله تعالى: ﴿...**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا...** ﴾[18] وغيرها.

وأما اختلاف اللفظ و المعنى، مع امتناع جواز أن يجتمعا فهو اختلاف القراء في الحركات الذي يختلف معه معنى الفعل. ومثاله قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾[19]. قرأ نافع بضمّ الصاد (يَصُدُّونَ)، وقرأ حمزة بكسر الصاد (يَصِدُّونَ)، فالأولى بمعنى يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى: صدودهم في أنفسهم، و كلا المعنيين حاصل منهم.

قال صاحب التحرير والتنوير: " وهي من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير لأنّ ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءات الأخرى، أو قد يثير معنى غيره، و لأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة نحو ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[20] بفتح الطاء المشددة و الهاء المشددة، وبسكون الطاء وضم الهاء مخففة، و نحو﴿**لامستم النّساء**﴾[21] و﴿**لمستم النّساء**﴾[22،23].

بعد هذا الاستعراض لأهمية اختلاف القراءات الصحيحة في التفسير، يمكن تقسيم القراءات التي لها أثر في المعنى إلى:

1- بيان معنى آية:

وتتضمن الآيات التي وردت فيها قراءات بيّنت معناها ووضحته، وغالبها أنتج فيه اختلاف القراءات أكثر من معنى في الآية لكنه يجتمع في معنى واحد جامع بلا تضاد، و لا شك أن ورودها على هذه الصفة مما يزيد المعنى وضوحا و بيانا.

ومثال ذلك قول الله تبارك و تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا**

---

[18]- البقرة: 259.

[19]- الزخرف: 57.

[20]- البقرة: 222.

[21]- النساء: 43.

[22]- المائدة: 6.

[23]- التحرير و التنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج1/ 55.

يَشْعُرُونَ﴾[24]. لقد تنوعت القراءات في قوله: (وما يخدعون). فقرأ نافع(ت169ه)، وابن كثير وأبو عمرو(ت154ه) بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال: (يُخادِعُونَ). وقرأ باقي العشرة بفتح الياء وإسكان الخاء بلا ألف وفتح الدال: (يَخْدَعُونَ)[25].

وجاءت القراءتان بمعنى واحد، لأن خادع و خدع بمعنى واحد عند أهل اللغة، إلّا أنه في قراءة (و ما يخادعون) زيادة في المعنى. قال صاحب الكشف: " خادع و خدع بمعنى واحد، كقولهم: داويت العليل، وعاقبت اللصّ، فلما كان (خادع وخدع) بمعنى واحد اختار (خدع) فحمله على المعنى الأول، لأنه بمعنى (يخدعون) وما يحمله على اللفظ، فبيّن على أن الأول محمول على (يخدعون)، و يقوي هذا المعنى أن مخادعتهم إنما كانت للنبي صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، ولم يكن للنبي والمؤمنين لهم مخادعة، فدلّ على أن الأول من واحد بمعنى (يخدعون) فجرى الثاني على معنى الأول. وعلة من قرأه بألف إنما لما كان (يُخادِعون و يَخْدعون) في اللغة بمعنى واحد أجري الثاني على لفظ الأول إذ معناهما (يخدعون أولياء الله)، فذلك أحسن في المطابقة و المشاكلة بين الكلمتين، أن تكونا بلفظ واحد"[26].

2- **اتّساع معنى آية:**

والمراد بها القراءات الصحيحة التي أدى اختلافها إلى توسيع معنى الآية وأفادت الآية بها أكثر من معنى، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**[27]. فقد "تنوعت القراءات في قوله (أمرنا)، فقرأ يعقوب (آمَرْنَا) بمد الهمزة، و الباقون (أَمَرْنَا) بقصرها"[28].

لقد أفادت قراءة الجمهور (أَمَرْنَا) أن الله أمر أكابر القوم بالطاعة بعد أن صب عليهم ما أبطرهم، فخرجوا عن أمره فحق عليهم الإهلاك و الاستئصال. وأفادت قراءة يعقوب (آمَرْنَا) بأنّ الله كثّر عدد المترفين و زاد في إترافهم استدراجا للإهلاك بسبب

---

[24]- البقرة : 8 - 9.

[25]- ينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، مرجع سابق، ص 21.

[26]- الكشف عن وجوه القراءات السبع و عللها و حججها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1404ه- 1984م، ج1، ص 224-225.

[27]- الإسراء: 16.

[28]- البدور الزاهرة، مرجع سابق، ص 184.

فسوقهم و خروجهم عن طاعة الله تعالى. ويتبين بالجمع بين القراءات أنه إذا جاء وقت إهلاك قرية فلابد من استحقاقها للإهلاك، و ذلك بسبب الفسق و الخروج عن طاعة الله، لذلك يأمر الله من في القرية و ساداتها بالطاعة ليكون في ذلك حجة عليهم، و بسبب استمرارهم في الفسق يكثر عددهم، و يزيد في نعمتهم استدراجا لهم حتى يحق عليها العذاب[29].

3- إزالة إشكال عن معنى آية:

والمراد بها القراءات المتواترة التي أنتج التنوع فيها رفع إشكال متوهم في معنى الآية. ومثالها في قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[30]. تنوعت القراءات في قوله: (وَاتَّبعتهم)، فقرأ أبو عمر بهمزة قطع مفتوحة بعد الواو وإسكان التاء والعين ونون مفتوحة بعد العين وألف بعدها: (وأَتْبَعْناهُمْ)، وغيره بوصل الهمزة و تشديد التاء مفتوحة بعد الواو مع فتح العين وتاء مثناة فوقية ساكنة بعدها: (واتَّبَعَتْهُمْ)[31].

ومعنى قراءة الجمهور إخبار من الله تعالى عن ذرية المؤمنين أنها تتبع آباءها في الإيمان، فارتفعت بفعلها. و لكن ليس كل من آمن اتّبعتْه ذريته بإيمان، إنما ذلك إلى الله يوفق من يشاء من ذرية المؤمنين إلى الإيمان بمثل إيمانهم، و يخذل من يشاء فلا يوفقه إلى الإيمان.

ومعنى قراءة أبي عمرو الإخبار من الله جلّ ذكره عن نفسه أنه يوفق من يشاء من عباده المؤمنين إلى الإيمان بمثل إيمانهم، و يخذل من يشاء فلا يوفقه إلى الإيمان، كما أتى الإخبار من الله جل ذكره عن نفسه قبل ذلك و بعده،في قوله:(وَزَوَّجنَاهُمْ)، (وَأَلْحَقْنَا بِهِمْ)، (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ)[32]. "ويتضح المعنى في قراءة الجمهور إجمال قد يتوهم منه أن ذرية الذين آمنوا تتبع آباءها في الإيمان، فينتج عن ذلك إشكال إذ ليس كل من آمن

---

[29]- ينظر: تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر من خلال سور: الاسراء و الكهف و مريم، آمال خميس حماد، ص 61.

[30]- الطور: 21.

[31]- ينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، مصدر سابق، ص 305.

[32]- ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع و عللها و حججها، مرجع سابق، ج 2، ص 290

اتبعته ذريته بإيمان، فبينت قراءة أبي عمرو هذا الإجمال و زال الإشكال، كما بينت أنّ المقصود من وفقه الله من ذرية المؤمنين إلى الإيمان بمثل إيمان آبائهنّ"[33].

المطلب الثاني: مظاهر التفسير في توجيه المعنى.

التفسير كالقراءة المتواترة من حيث توجيهه للمعنى، فإذا كان لِتعدد القراءات الصحيحة الأثر في توجيه المعنى، فإنّ للتفسير أثرا في توجيه المعنى كذلك، فيأتي التفسير مبينا لمعنى الآية و موضحا لها، أو موسعا لمعنى الآية، أو مزيلا و رافعا لإشكال متوهم في معنى الآية، و المراد أثرها في دفع ما يُتوهّم في معنى القراءة الصحيحة.

1- التفسير وبيان معنى آية:

قال الله تبارك و تعالى: ﴿...**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[34].

قرأ ابن عباس (ت68ه): (وما يعلم تأويله إلا الله و يقول الراسخون في العلم آمنا به). وقرأ ابن مسعود(ت32ه): (وإنّ حقيقة تأويله إلا عند الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به). وعن طاوس؛ قال: كان ابن عباس يقول: (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به).

وقد افترق العلماء في تأويل قوله تعالى: (**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**) إلى فرقتين:

فرأت فرقة أنّ رفع (وَالرَّاسِخُونَ) هو بالعطف على اسم الله عز وجل وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله وأنهم مع علمهم به، يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ الآية. قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، ويَقُولُونَ على هذا التأويل نصب على الحال.

وقالت الأخرى: وَالرَّاسِخُونَ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول وخبره يَقُولُونَ، والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية وفعل الراسخين قولهم آمَنَّا

[33]- القراءات و أثرها في التفسير و الأحكام، مرجع سابق، ص 593.

[34]- آل عمران: 7.

بِهِ قالته عائشة وابن عباس أيضا، وقال عروة بن الزبير: إنّ الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون، آمَنَّا بِهِ[35].

ويُجلي التفسير معنى القراءة على النّحو التالي: أنّ الراسخين في العلم لا يعلمون المتشابه، فلا يعلم المتشابه إلا الله عزّ و جلّ. وعليه؛ بيّن التّفسير أن المعنى المراد في القراءة المتواترة إثبات علم الله عز وجل للمتشابه وتفرده به وحده سبحانه، وتسليم أهل الرسوخ في العلم بذلك وإيمانهم به.

2- التّفسير واتّساع معنى آية: قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ...**﴾[36]. فقرأ عامة القراء العشرة (كاتبا). وقرأ ابن عباس: (كُتَّابًا) بضم الكاف و تاء مشددة بعدها ألف. وقرأ أُبَيُّ بن كعب: (كِتَابًا) على أنّه من الكتابة[37].

فقراءة الجمهور دلّت على أن الرهن يكون لفقد الكاتب، ومعنى التفسير دلّ على أن الرهن يكون لفقد الكتابة، فالحاصل أن الرهن يكون لفقد الكاتب والكتابة. قال أبو حيان: " نفي الكاتب يقتضي نفي الكتابة، ونفي الكتابة يقتضي أيضا نفي الكتب"[38]. أمّا قراءة أُبَيّ بن كعب(ت30هـ) رضي الله عنه فدلّ تفسيرها على اتّساع معنى الآية، وهذا أحد مظاهر التفسير في توجيه المعنى.

3- التّفسير وإزالة إشكال:

جاء في قوله تعالى: ﴿**...وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾[39]. قرأ عامة القراء العشرة: (مَلَكَيْنِ) بفتح اللّام. وقرأ ابن عباس: (مَلِكَيْنِ) بكسر اللّام[40].

---

[35]- ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، ج1/402 – 403.

[36]- البقرة: 283.

[37]- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان -، ط 1، 1413 هـ– 1993 م ج 2/ 371.

[38]- المصدر نفسه، ج 2/ 371 وما بعدها.

[39]- الأعراف: 20.

[40]- ينظر: البحر المحيط، مصدر سابق، ج 4/ 280.

قال القاسمي(ت1332ه): " وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء، لارتكابهما ذلك طمعا في نيل ما ذُكِر. وأجاب، من لم ير هذا، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوّة آدم. و لئن كانت بعدها فلعلّ آدم رغب في الملكية للقوة والشدّة والقدرة، أو لخلقة الذات، بأن يصير جوهرا نورانيّا. وقال الواحديّ: إنّا أتاهما إبليس من جهة المُلْك، ويدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿ **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**﴾[41]. والقراءة الشاذّة قد تكون تفسيرا للقراءة المتواترة، كما لا يخفى"[42]. فهذا أيضا مظهر من مظاهر التّفسير في دفع ما يمكن توهمه في معنى القراءة الصحيحة.

وأخلص في نهاية هذا المبحث إلى أنّ لتعدد القراءات الصحيحة المتواترة الأثر في تعدد المعاني؛ إذ كل قراءة زادت معنى جديدا لم تبينه أو توضحه القراءة الأخرى، وبهذا اتسعت المعاني بتعدد القراءات؛ إذ أنّ تعدد القراءات يقوم مقام تعدد الآيات القرآنية، مما ينتج عنه كذلك رفع إشكال متوهم في معاني بعض الآيات.

المبحث الثالث: نماذج وتطبيقات تفسيريّة عند أبي حيّان من خلال "البحر المحيط".

المطلب الأول: الحركة الإعرابية ودلالة اللفظ.

قال الله تبارك و تعالى: ﴿**...وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ**﴾[43]. فقرأ أُبَيّ بن كعب: (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ من الأُمّ). وقرأ الزبير(ت36ه) وسعد بن أبي وقاص(ت55ه): (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمّ)[44].

لقد تعدّدت معاني (كلالة) رغم ثبوت الحركة الإعرابية فيها، فيحتمل المعنى :

" أ- أن تكون اسما للميت فهي (حال) وكان تامة أو خبر لكان الناقصة.

ب- أن تكون اسما للورثة فهي (حال) سواء أكانت تامة؛ أم ناقصة، وخبرها جملة (يورث) ويجوز أن يكون خبر كان الناقصة.

---

[41]- طه: 120.

[42]- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1، 1376 ه – 1957 م، ص 2641.

[43]- النّساء: 12.

[44]- البحر المحيط، مصدر سابق، ج3 / 198.

ج- أن تكون اسما للمال فهي مفعول ثان لـ (يورث) وقيل تمييز والأول أظهر وأرجح
د- أن تكون بمعنى الوراثة وهو بعيد فتكون نعتا لمصدر محذوف، تقديره: وراثة كلالة"[45].

وقد علّل أبو السعود (ت982هـ) نصب (كلالة) بثلاثة وجوه[46]:
أوّلها: أنّها مفعول له، والمعنى: اي يورث منه لأجل القرابة المذكورة .
وثانيها: أنّا حال من الضمير في (يورث)، والتقدير: اي حال كونه ذا كلالة .
وثالثها: أنّها خبر لـ (كان) و(يورَث) صفة لـ (رجل)، والتقدير: إن كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والد ولا ولد، أو إن كان الميّت كلالة للوارث ليس أباً ولا ابناً.

ثمّ ذكر أنّ الفعل (يورث) قرئ بكسر الراء على البناء للمعلوم، موجّهاً إعراب (كلالة) بثلاثة وجوه[47] أيضاً؛ اثنين منهما بمثل الّذي ذكره في إعرابها مع الفعل(يورث) في حال بنائه للمفعول، وهما (حال بتقدير: يورث وارثه حال كونه ذا كلالة، ومفعول له)، والوجه الثالث: أنّها تعرب مفعولاً به فيكون التقدير: يورث ذا كلالة.

وقال أبو حيّان(ت745هـ): " وأجمعوا على أنّ المراد في هذه الآية: الإخوة لأم، و يوضح ذلك قراءة أُبَيّ (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنَ الأُمِّ) و قراءة سعد و الزبير (من أُمّ) و اختلاف الحكمين هنا، و في آخر السورة يدلّ على اختلاف المحكوم له، إذ هما الابنان أو الإخوة يشتركون في الثلث فقط، ذكورا أو إناثا بالسويّة بينهم"[48].

ثمّ حكى أبو حيان إجماع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية عنى بها الإخوة لأم، وقراءة أُبَيّ بن كعب و سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنهما – مؤيّدة للتّفسير؛ لإجماع الصحابة عليه من توريث أخوّة الأمّ في حالة الكلالة، وذكرت الكلالة في موضعين من كتاب الله تعالى، فالتّفسير يؤكّد الحكم.

---

[45]- دراسات تحليلية لغوية لسور قرآنية، علي أحمد طلب، د ط، مصر، مطبعة دار البيان، 1406هـ/1986م. ص:28-30، بتصرف.

[46]- ينظر: المرجع نفسه، ص:29.

[47]- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود، ط4، دار إحياء التراث العربيّ . بيروت 1414هـ / 1994م، ج106/3.

[48]- البحر المحيط، مرجع سابق، ج 3/ 198.

المطلب الثاني: دلالة عود الضمير

جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾[49]. قرأها أُبَيّ بن كعب مع ضمّ النون (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ).

قال أبو حيّان: " و الظاهر أنّ الضميرين في (به) و (موته) عائدان على عيسى، و هو سياق الكلام، والمعنى: من أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله، روى: أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلّا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة، و هي ملة الإسلام، قاله ابن عباس و الحسن و أبو مالك، و قال ابن عباس أيضا وعكرمة والضحاك والحسن أيضا، ومجاهد وغيرهم: الضمير في (به) لعيسى، وفي (موته) لكتابي، وقالوا: و ليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، ويعلم أنّه نبيّ، ولكن عند المعاينة للموت، فهو إيمان لا ينفعه كما لم ينفع فرعون إيمانه وقت المعاينة...ويدلّ عليه قراءة أُبَيّ (إِلَّا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ) بضمّ النون على معنى: وإن منهم أحد إلّا سيؤمنون به قبل موتهم، لأنّ (أحدًا) يصلح للجمع، فإن قلت: فما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم، قلت: فائدته: الوعيد، وليكن علمهم بأنّهم لابدّ لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأنّ ذلك لا ينفعهم بعثا لهم وتنبيها على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجّة لهم "[50].

اختلف المفسرون على من يرجع ضمير الغائب في قوله تعالى:(موته)، فذكر أبو حيان أنّ الظاهر رجوعه على عيسى عليه السلام معللا ذلك بسياق الكلام، مثله مثل الضمير في قوله تعالى: (به)، ومعنى ذلك: أنه لا يبقى من أهل الكتاب أحد إذا نزل عيسى إلى الأرض إلا يؤمن بعيسى كما يؤمن سائر البشر، لأنّ الآية التي قبل هي قوله تعالى: (بل رّفعه الله إليه) الضمير في:(رفعه) عائد على عيسى عليه السّلام، وهذا هو سياق الكلام الذي أشار إليه أبو حيان. وفي قراءة أُبَيّ بن كعب تقوية لعود الضمير على الكتابيّ، لأن اللفظ فيها جاء بصيغة الجمع، العائد على أهل الكتاب. من خلال ما

---

[49]- النساء: 159.

[50]- البحر المحيط، مرجع سابق، ج 3/ 408.

سبق نتج تأويلان لعود الضمير في قوله تعالى: (إليه) الأول هو عود الضمير على عيسى عليه السلام، و الآخر عوده على الكتابيّ، فالقاعدة التي بنى عليها أبو حيان تفسير معنى الآية هي قاعدة: عود الضمير.

خلاصة القول:

وأخلص في نهاية هاته الورقة البحثية إلى النتائج التالية:

1. ضابط الصّلة في التلازم بين القراءات والتّفسير هو الزيادة في السياق القرآني والذي يتّسع له المعنى بدوره.
2. لكل من القراءات والتّفسير أهمية بالغة في الدراسات القرآنية، وذلك من خلال إيضاح معاني القرآن الكريم، كالاستشهاد بها في استنباط الأحكام الشرعية، وذلك بالرجوع إليها في إيضاح حكم من الأحكام، أو بيان حكم مجمع عليه، أو ترجيح حكم مختلف فيه، وكذا الاستشهاد بها في القضايا اللغوية بمختلف مستوياتها.
3. يتركّب المعنى بتفسير القرآن بالسنة النبويّة، وذلك إن صرّح الصحابيّ برفعها إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويكون في أدنى الأحوال من قبيل تفسير القرآن بقول الصحابيّ إذا لم يصرّح برفعه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.
4. يتبيّن موقف أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط من التلازم بين القراءات والتّفسير باعتماده للتفسير كمصدر بالغ الأهمية في توجيه معاني الآيات القرآنية، فكان كثيرا ما يوظف التّفسير في اختيار المعنى.